حكايات أندلسية للأطفال

3

أسرار الهواء وعلوم الحياة

بقلم
دكتور حسين مؤنس
رسوم
عمرو أمين

دار الرشاد

فى قَصْرِ أمير قُرْطبةَ .. فى بلادِ الأندلسِ الجَميلة كانَ يُوجَدُ عددٌ منَ الشُّيوخِ المتميِّزينَ بالعلْمِ والخُلقِ .. يقُومونَ بالتدريسِ لأبناءِ الأمراءِ ، وللأطفالِ من أهْلِ القَصْرِ ..

وكانَ منْ بينِ هؤلاءِ الشُّيوخِ إبراهيم الأصيلىَ ، الذى كانَ يُعلِّم الأولادَ الأدبَ ، ويُدرِّبهُم على الإلقاءِ وقراءةِ الشِّعْرِ .. وكانَ شيخاً لطيفاً تَمشَّى الشيْبُ فى شعرِه الكثيفِ .. وكان وَسيمَ الوجهِ ، حسنَ الطَّلْعة ، شديدَ العنَايةِ بثيابِه .. وكانَ لاَ يُغطِّى رأسَهُ بعمامةٍ ، وإنما يرسلُ شعرَهُ الطَّويلَ وراءَ رأسِه وأُذنيه وكان يقول : هكذا كان رَسُولُ الله ﷺ يُرجِّلُ شَعْرَهُ الكثيرَ الجميلَ .

وكانَ الشيخُ إبراهيمُ الأصيلىَ يحفظُ منَ الشِّعْرِ العربىَ شَيْئاً كثيراً جداً، ويُجيدُ إلقاءَهُ، وكانَ الأُمراءُ يستدْعونَهُ لكى يسمعُوا منْه الشِّعْرَ، فينشد أمامهُمْ ما يطلبُونَ منْ أشْعارِ الجَاهليِّينَ والإسْلاَميينَ .. وكانَ يُعجبُه شِعْرُ عُمر بن أبى ربيعةَ ويجيدُ إلقاءَهُ .

وقد أحبَّ عبَّاسٌ هذَا الأستاذَ حُباً شديداً، لأنه كانَ لَطيفاً عطُوفاً صَادقاً، ومُخْلصاً فى عمله .. كانَ عباسٌ يدعُوه لزيارة مكتبة عمِّه بشَرْقِىّ مسجد قُرْطبةَ الجامع، فَيجلس هناكَ ساعات يتصفَّحُ دواوينَ الشُّعراء .

وكانَ يُعجبُه فى عبَّاسٍ ذكَاؤُهُ، ودقَّةُ ملاَحظَته، وَوَلَعُه بفحْص كُلِّ شئ يقعُ فى يده، ومُحَاولةُ فَهْمِ تَرْكيبه . وكانَ يُعجبُه فى عبَّاسٍ كذلكَ نشاطُهُ وخفَّةُ حركته، وحُبُّه للعلْمِ، ولَمْ يكُنْ للشيخِ إبراهيمَ الأصيلىّ أولاَدٌ فكانَ يقولُ : « عبَّاسٌ ابْنى » .

وذات يوم ، كانَ الشيخُ إبراهيمُ فى زيارةٍ لمكْتبةِ عبَّاس .. فوقعَ نظرهُ علَى كتَابٍ عنوانُه :

« نهَايةُ الأملِ فى عِلْمِ الحِيَلِ » .. فتنَاولَهُ .. وأخذَ يتصفَّحُه باهْتمامٍ شَديد ، فقالَ لَهُ الشَّيْخُ عبدُ الرَّحمنِ عَمّ عباس :

ـ هَلْ يُعجبُكَ هذَا الكتَابَ يا شَيْخُ إبراهيم ؟

ـ إنَّه كتابٌ فريدٌ فى بَابِه .. إنَّه فِى « العُلُومِ » ..

ـ عُلُومَ الدِّينِ تقصدُ .. ؟

ـ لاَ .. إنَّه فى الطَّبيعةِ والكيمْياءِ وطَبَائعِ الموادِّ ..

فقالَ الشيخُ عبدُ الرَّحْمن :

ـ هَذه عُلومٌ لاَ يُقبلُ عليهَا أحدٌ ، وهذَا الكتَابُ هنَا فى مَكْتبتِى منْ سَنوات .. فإذَا شِئْتَ أَنْ تُخلِّصَنِى منْه ، فَخُذْهُ هديةً منِّى .. مجاناً .. ولكَ الشُّكْرُ ..

ـ يَا أخى عبدَ الرَّحْمنِ ، هذَا الكتابُ جَليلُ القَدْرِ فى علْمِ الحِيَلِ ، يبحثُ فى طَبَائعِ الموادِّ ومَنَافعِ المعَادنِ والأحْجَارِ ، قرأتُه مرَات فلم أعرفْ الأصْلَ اليُونَانىَّ الذى نُقلَ عَنْهُ ، والغَالبُ أنه منَ

الكُتب التى تُرجمَتْ فى دَار الحكمة ، التى أنشأهَا الخَليفةُ المأمونُ فى بغْدَاد .

ـ وَما هى دَارُ الحِكْمة هَذه ؟

ـ لقدْ أراد الخليفةُ عبدُ الله المأمون العَبَّاسىّ ، ابنُ أمير المؤْمنينَ هَارُون الرَّشيد ، أنْ يُترجمَ إلى العربية كُتُبَ اليُونان فى الطبِّ والكيمياء والفيْزياء والفلسفة ، فَاسْتحضرَ الكُتبَ والمترجمينَ وأنشأَ لَهُمْ دَاراً سُمِّيتْ دارَ الحِكْمة، وكانَ يُجيز المترجمينَ بإعطائهمْ وَزْنَ مَا يُترجمُونَ من الكُتُب ذَهباً .

ـ إلى هَذَا الحدِّ بلغَ وَلَعُ المأمون بهذه العُلوم التى لاَ تُفيدُ .

فقالَ الشيخُ إبراهيمُ الأصيلىّ : لاَ يَا شيخُ عبد الرَّحْمن ، كانَ الخَليفةُ المأمونُ على حَقٍّ ، لأن عِلْمَ الطبِّ والهنْدسَة والكيمياء وطَبَائع الموادِّ علومٌ نَافعةٌ جداً فى شُئون المعَاش ، لأنهَا تُساعدُنَا علَى معرفة قيَم الموادِّ التى بينَ

أيدينَا وكيْفَ نَفيدُ منهَا على أحسَنِ وَجْهٍ مُمكنٍ ، خُـذْ مَثلاً ، فى هذا الكتابِ الذى لاَ يُعجبُكَ فَصْلٌ عَنِ الهَواءِ ، مَـا هُوَ ؟ ومَا طَبيعـتُه ؟ وهَلْ لَهُ وزنٌ أمْ ليسَ لَهُ وَزْنٌ ؟

ـ وَزْنٌ للهـواء ، مَا هـذَا الـتَّخْريفُ يا شيْخُ إبراهيم ؟ الهَواء هَذَا الذى لاَ نَراهُ ولاَ نعرفُ إلاَّ أنَنَا نتنفسُه لَهُ وَزْنٌ ؟

ـ طَبعـاً أَلَمْ تسألْ نفسَكَ كيفَ أنَّ هذَا الهَـواءَ الذى تقولُ إنَّه لاَ وزنَ لهُ يحملُ الصَّقْر والعُقابَ والنَّسْر ، وَوزْنُ النَّسْر أحياناً يَصِلُ إلى وَزْنِ الخروفِ، وطُول جَنَاحَيْه إذَا فردَهُمَا يصلُ إلى مترَيْن .

ـ سُبـحانَ الله ... إننِى أرى الـطُّيورَ تطيرُ طُولَ عُـمرِى ، ولَكنِّى مَـا فكَّرْتُ أبداً فيمَا تقولُ .

ـ ولَكنَّ هذَا الكتابَ الصَّغيرَ يدعُـوكَ إلى التَّفكير فى الهواءِ يُجيبُ عن سُؤالٍ لَمْ تسألْ نفسَك عَنْه أبداً .

ـ مَا هُوَ ؟

ـ السُّؤالُ هُوَ . كيفَ يستطيعُ الهواءُ حَمْلَ النَّسْر ووزنُه يصلُ أحياناً إلى خَمْسين أَوْ ستِّينَ رطلاً ؟

ـ لأنَّ النَّسْر يضربُ الهواءَ بجناحَيْه فيرتفع فى الهَواء .

ـ ولَماذَا يرتفعُ فى الهَواء أو يظلُّ مُعلَّقاً فيه ؟

ـ لأن هذه إرادةُ الله سُبْحانه .

ـ سُبْحانَهُ وتباركَ وتَعَالى ، وجَلَّ شأنُه وقُدْرتُه ، لَقدْ خلق الأشياءَ بقدَرٍ وأجراهَا بمَشيئته ولَكنَّه دَعَانَا إلى أنْ نُفكِّر فى ذَلكَ ، ألَمْ تقرأ قَوْلَهُ تعالىَ فى سُورة ص منَ القُرآن الكَريم عن سيِّدنا سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ ﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ** ﴾ (آية ٣٦) وقَولَه تعالى فى سُورة البقرة (آية ١٦٤) ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ صدق الله العظيم

ـ أَجَلْ قَرَأْتُه .

ـ أَلَمْ تتفكَّرْ فى تَسْخيرِ الله للرِّياحِ بين السَّماءِ والأَرْضِ ، أى تَسْييرِهَا بِمَشيئته وجَعْلِهَا فى خِدْمة خَلْقه .

ـ عِنْدى هُنَا تفسيرُ الطَّبرىِّ وتفسيرُ الفَخْر الرَّازى ، وفيهَا تَفْسيرُ الآيات الكريمة .

ـ أنا أيضاً قرأتُ تفسيرَ الطَّبرىِّ وتفسيرَ الفَخْر الرَّازى ، ولكنَّى لَمْ أجِدْ عندَهما شَيْئاً يَطْمئنُّ إليه عَقْلى ، وهذَا الكتابُ حَلَّ لى المشْكلةَ ، فقد فسَّر لى كيْفَ يطيرُ النَّسْرُ ويُحلِّقُ فى الهواءِ .

ـ وَماذَا يقولُ كتابُكَ هذَا ؟

ـ يقول إن النَّسْرَ أو العُصْفورَ أو أىَّ طائرٍ إذَا أرادَ أنْ يطيرَ ضربَ الهواءَ بجناحَيْه أى ضغطَ الهواءَ تحْتَ جناحَيْه ، حتَّى يصيرَ وَزْنُ الهواءِ أثقلَ من وَزْنِ الطَّائرِ فيرتفعَ فى الجَوِّ ولكىْ يرتفعَ أكثرَ

يُرفْرِفُ بِجنَاحَيْهِ أكثرَ وأقْوى ، فَيرْتفِعَ إلى أعلَى ، حتَّى إذَا وصلَ إلى عُلُوٍّ شَاهِقٍ أصبحتْ طبقاتُ الهواء تَحتَهُ من الكثافةِ بحيثُ تَحْمِلُه وهُو سَاكنٌ فى الجَوِّ مَفرُودَ الجَنَاحِ.

قَالَ الشيخُ عبدُ الرَّحمَنِ :

ـ اسمعْ يَا شَيْخُ إبْراهيم : أنت شَاعِرٌ والشُّعَراءُ يَتَّبعُهُم الغَاوُونَ ، أما أنا فَوَرَّاقٌ أبيعُ الكُتُبَ ، فَخُذْ هذَا الكتابَ وأرِحْنى مِنْهُ ومِنَ الخيَل ومِنَ الهواءِ والطُّيورِ .. وكَيْفَ تَطيرُ ..

أخذَ الشيخُ إبراهيمُ الأصيلىّ الكِتَابَ وخرجَ وتبعَهُ عبَّاسٌ ، وكانَ قَدْ استمعَ إلى هَذَا الحَديثِ مَبْهوراً بما سَمِعَ ، فقالَ للشَّيخ :

ـ تُعطِينى هَذَا الكِتابَ يَا عمِّى

ـ لَنْ تفهمَ مَا فِيهِ يَا عبَّاسُ ...

ـ أظنُّ أننى سأفهمُ .. لأننى مِن زَمنٍ طويلٍ كنتُ أسألُ نَفْسِى :

كيفَ تطيرُ الطَّائِرةُ الورَقيَّةُ التى نلعبُ بِهَا .. ؟

نظرَ الشيخُ إبراهِيم إلى عبَّاسٍ وقَالَ :

ـ فى مِثْلِ هذَا الأمر تُفكِّرُ يَا عبَّاسُ ؟

ـ أَجَل أيهَا الشَّيْخُ .

ـ إذَنْ فهذَا هُوَ الكِتَابُ ...

أخذَ عبَّاسٌ الكتابَ وودَّعَ شَيْخَهُ ومضَى بالكتابِ تَحْتَ إبطِهِ ،

وَتأمَّلَهُ الشيخُ وهُوَ عَائدٌ إلى بيتِهِ ، وَقَالَ :

ـ يَا لَكَ مِنْ غُلامٍ نَادرٍ يَا عبَّاسُ .

جلسَ عبَّاسٌ فِى حُجْرتِهِ يُفكِّر فى أَمْرِ الهَواءِ .. وجعلَ يُحرِّكُ

كفَّهُ إلى فَوْق وإلى تَحْت أَوْ إلَى يمينٍ وشمالٍ فَيُحِسُّ بالهَواءِ ويقولُ :

« إذَنْ فَالهَواءُ حَقِيقةٌ لَهُ وزْنٌ وقُوَّةٌ » وذكرَ أنَّ أُمَّهُ فى البَيْتِ تُمرِّوحُ

على وَجْهِهَا بِمرْوحَةٍ مِنْ خُوصٍ ، فأمْسكَ بصَفْحةٍ مِنْ مَعْدنٍ رَقيقٍ ،

فَجرَّبتْهَا وأُعْجبَتْ بهَا .. فَعَادَ بهَا إلى غُرفته .. وفكَّر فى أنْ يَصْنَعها منْ خشَبٍ رَقيقٍ ، ثُمَّ يَلصقهَا بِقُماشٍ ثُمَّ يُثبِّتهَا .. (وشَيْئاً فَشَيْئاً صنعَ مِرْوحةً مَطْويةً جَميلةً وأنيقةً) .

وحملهَا معَهُ إلى القصْرِ عندما ذهبَ ليتلقَّى الدُّروسَ . (نساءُ القَصْرِ فَرِحْن بهذه المِرْوحةِ) وكُلٌّ منهُنَّ طلبتْ واحدةً .. وعباسٌ اجتهدَ فى تَجْويدِ صُنْعِ هذه المراوحِ المطْويَّة ، التى تُمسكُ بهَا النساءُ وتَجْميلهَا . (وأُعجبَ بِهَا صاحبُ مَصْنعٍ مُجَاورٍ لدُكَّانِ عَمِّهِ فَشَارَكَ عبَّاسٌ فى اخْتراعه) .

وشيئاً فَشيئاً أتقنَ عبَّاسٌ وصَاحِبُه عملَ هذه المراوحِ .. عَملاَهَا من الخَشَبِ والمعْدَنِ الرَّقيقِ والعَاجِ .

وحرَّكَها أمامَ وَجْهِهِ بشدَّةٍ فَأحسَّ بقوةِ الرِّيحِ .. (وَهُنَا خَطرَ بِبَالِه أنْ يصنعَ المِرْوحةَ المطويَّة) فَنَهضَ وشَقَّ صَفْحةَ المعدنِ الرَّقيقةَ إلى شَرائطَ ، عَرْضُ كُلِّ شَريطٍ أُصْبعَانِ ، ثُمَّ ثبَّتَ هذهِ الشَّرائطَ مِنْ طرفٍ واحدٍ بمسْمارٍ ، وجعلَ يُعالِجُها حتَّى أصبحَتْ تتحرَّكُ .. ثَم قامَ بفتحِهَا ووصَلَ بعضَها ببعضٍ بِشَرائطَ مِنَ القُماشِ وجعلَ يفتحُهَا ويَطويهَا .. يَفتحُهَا لِيُروِّحَ بِهَا علَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ يطْوِيهَا لِيضعَهَا فى جَيْبِهِ . (حملَ عبَّاسٌ هذهِ المِرْوحة إلى بيتِهِ وأعطَاهَا لأُمِّهِ ، وطلبَ إليهَا أنْ تُجرِّبها ..) .

وتأنَّقَا فى صُنْعِها وشَاعَ اسْتعمالُهَا حتَّى أصبحَتْ فى كُلِّ بيتٍ .

وكسَبَ عبَّاسٌ وصَاحِبُه مِنْ هَذا مَالاً كَثِيراً .

ومُنذُ ذَلِكَ الحِين أصبحَتْ هَذهِ المراوِحِ مَيْزةً اختصَّتْ بها الأندلسُ على غيرِهَا مِنَ البِلاَد . وقلَّدتْهَا مصانعُ أُخْرى وَصنعُوهَا مِنْ كُل مَادَّةٍ مُمكِنةٍ .. مِنَ القُمَاشِ المُقَوَّى والوَرقِ والعَاجِ ، وَتأنَّقُوا فِيهَا فَرَسمُوا عَليها صُوراً وزَخارِفَ وأصبحتْ صِناعةً عظيمةً وشَيْئاً مألُوفاً فى الأندلُس.

ولَمْ يصنَعْ هـذَا النَّوعَ مِنَ المراوحِ المطْويَّةِ فى الدُّنْـيـا إلا بَلدَانِ اثْنَانِ: الأندلُسُ والصِّيـن ، فإذَا رأيتَ امرأةً أَنيـقةً تحملُ واحِـدةً مِنْ تِلْكَ المراوحِ التى صنعُوهَا عـلى كُلِّ شَكْلٍ وصُورةٍ ، فَاذْكُـر أنهَا مِن اخْتـراعِ وَاحِدٍ مِنْ أسـلافِكَ العَـربِ هُوَ عبَّاسُ بنُ فِرْناسَ الذى اخترعَـها قَـبْلَ أَنْ يبلُغَ الخَامِسةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمرِهِ .

***

الناشـــــر : **دار الرشـاد**
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ٥٦٠٢ / ٩٧
الترقيم الدولى : 7 - 46 - 5324 - 977
تجهيزات وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــــوان : ١٠٧ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــع : **آرمس للكمبيوتر**
العنـــــوان : ٣٢ شارع عبد اللطيف مجلس الأمة
تليفـــــون : ٧٩٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م
الطبعة الثانية : ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م
الطبعة الثالثة : ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م